الثَّورة التُّونسيَّة

مدخل

إن الظلم ظلمات يوم القيامة، فلما خيّم الظلم، وغابت العدالة، وسيطر الفقر المدقع على الشعوب العربية، ورزح الشعب تحت نير الذل، والاستعباد، ورتع في قيود الفقر والاستغلال هبّ الشعب من غفوته، واستيقظ من رقدته، وهاج كما يهيج البحر المتلاطم الأمواج، وصار كالأسد الهصور إذا ما أنشب الأظفار في أسد هصور ليزيح الظلم، ويقضي على الفساد، وسقطت تلك الأنظمة بعد إراقة الدماء، حيث إن الحرية لا تمنح من الحكام للشعوب، وإنما تنال الحرية بالدم المهراق، يقول الشاعر "أحمد شوقي":

وللحريـــة الحمـــراء بـــاب بكـــل يـــد مضـــرّجة بـــدم

فالعدل أساس الملك، ولقد وصّى "الحجّاج بن يوسف الثقفي" "طارق بن عمرو" فقال له في وصيّته: "إذا ولّاك أمير المؤمنين أمر "مصر"، فعليك بالعدل، فهم قتلة الظلمة، وهادموا الأمم، وما أتى عليهم قادم بخير إلا التقموه كما تلتقم الأم رضيعها، وما أتى عليهم قادم بشرّ إلا أكلوه كما تأكل النار أجفّ الحطب، وهم أهل قوّة وصبر وجلد، وتحمل، ولا يغرنك صبرهم، ولا تستضعف قوتهم، فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، وإن قاموا على رجل ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه، فاتق غضبهم، ولا تشعل ناراً لا يطفئها إلا خالقها، فانتصر بهم، فهم خير أجناد الأرض، واتق فيهم ثلاثاً:

الأولى: أرضهم: وإلا حاربتك صخور جبالهم.

ثانيـاً: دينهـم: وإلا أحرقوا عليك دنياك.

ثالثـاً: نساؤهم: فلا تقربهم بسوء، وإلا أهلكوك كما تهلك الأسود فرائسها.

وهم صخرة في جبل كبرياء الله، تتحطم عليها أحلام أعدائهم وأعداء الله".

وهذه الثورات هبّت في البلاد العربية لتقاوم الظلم، وتشيع العدل، وتحارب الفساد الذي خيّم على هذه البلاد منذ أمد طويل، وكان أوّل هذه الثورات:

ثـــورة تـــونـــس:-

ففي دولة "تونس"، وهى دولة عربية، كان يحكمها الرئيس "زين العابدين بن على"، ومكث على صدر الشعب مدة طويلة، وردحاً من الزمان، ينهب خيراتها، ويسرق مالها، وعاش الشعب التونسي تحت وطأة حكمه أمداً بعيداً، يرزح في الظلم والاستعباد، والضيق والفقر.

فلما بلغ السيل الزبا، هبّ الشعب التونسي من غفوته، واستيقظ من نومته، وتجمع الشعب بكل أطيافه؛ مما جعله مضطراً للرحيل، وذهب إلى المملكة العربية السعودية لاجئاً سياسياً، بعد أن غادر البلاد مكرهاً، كما حمل معه من المال ما تضيق به خزائن "قارون" وأمثاله: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة القصص:٧٦]، فلم يرعوى، ولم يتب ، إنما تعالى وبغى وتكبر، وعاث فى الأرض فساداً بماله وتجبّر، فكان جزاؤه من الله - عزَّ وجلّ - ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة القصص:٨١].

فكان الخسف برحيل "زين العابدين بن على" عن "تونس" مسقط رأسه، ومدرج صباه، وخرج منها مذموماً مدحوراً، وانتقلت السلطة إلى الشعب؛ ليحكم نفسه بنفسه، وانزاح الظلم، وغاب الفساد، وأشرقت الأرض التونسية بالحرية، والديمقراطية، وحكومة جديدة تعمل على إقامة العدل، وإسعاد الشعب.

وبعد الثورة التونسية هبّت رياحها، وعبق أريجها، وأتت إلى "مصر"؛ لتزيح الظلم والظلام، والفساد والإفساد، حيث رزحت "مصر" تحت هذا الظلم "ثلاثون

عاماً" في ظلم نظام فاسد يقوده الرئيس الأسبق "محمد حسنى مبارك"؛ حيث مكث يحكم "مصر ثلاثين سنة مع عصابة لا تعرف الخوف من الله. فأفسدت الحياة السياسية في "مصر". فقد كان الناجح يسقط، والساقط ينجح في ظل الحزب الوطني الديمقراطي، وفى الحقيقة لم يكن الحزب ديمقراطياً، ولا وطنياً، فلم يرع حقوق الله في الشعب، حيث إنهم ظلموا العباد، وسرقوا البلاد، ولم يراعوا حرمة المال العام، الذي هو في الحقيقة ملك للشعب، وعاش الناس في ضيق وفقر، وأصبحت الدولة – أو المعنى الدقيق أصبح الشعب – فريق في الجنة وفريق في السعير، فريق يعيش في بحبوحة من العيش ورغد الحياة، وقد امتلأت جيوبهم بالملايين بل بالمليارات، وتضخمت ثرواتهم، وبسطوا نفوذهم، وتناسوا شعبهم، ولم يتذكروا بل لم يفطنوا إلى حرمة الأموال التي قال فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في خطبته في حجة الوداع، حيث قال – صلى الله عليه وسلم – : "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام".

الجملة هنا جملة اسمية، مؤكدة بإن، وخبرها جملة اسمية قدم فيه الخبر "شبه الجملة" على المبتدأ "عليكم حرام"، وفى رواية البخاري: "فإن دماءكم وأموالكم"، قال "محمد" راوي الحديث: "وأحسبه قال: وأعراضكم عليكم حرام"[1].

وفى رواية "الواقدى" – وهى تنتهي إلى "عمرو بن يثربي"، وعبد الله بن عباس" – جاء الخبر جملة فعلية فعلها ماض مسبوق بـ "قد": "إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم"، ففيها تأكيد مضاعف، وداعي التوكيد هنا الرغبة في توثيق هذا الأمر في النفوس، وتثبيته في القلوب في هذا اللقاء الجامع، الذي

---

(١) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٢١٢/١٦ .
- وفتح الباري ١٠٨/٨ .
- وأيضاً : من أسرار البيان النبوى : د/ أحمد محمد على ص٨١ .

لا يتكرر مرة أخرى، ومن المعروف أنه في المدة التي تلت فتح "مكة" وغزوة "حنين" قد دخلت الوفود في دين الله أفواجاً، وكثير ممن كان في صحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم حجة الوداع لم يكن قد انفصم عن ماضيه الذي كانت تستباح فيه الدماء والأموال والأعراض، على الأقل بالنسبة للقبائل المعادية، فكان لا بد من هذا التأكيد.

وفي النهاية انتصرت إرادة الشعب التونسي في إزاحة الظلم والظالمين، وذلك بتصميم الشّعب التونسي على الحصول على حريته، والتي صودرت من جهة "زين العابدين بن علي" ونظامه المتسلط على الشعب التونسي رَدَحاً طويلاً من الزمان، ولكن سرعان ما انجابت الغمة، وانجلى الكرب، واستجاب القدر للشعب التونسي، فانزاح الظلم والظّلام، وصدق الشاعر التونسي "أبو القاسم الشابي" حين قال موجّهاً ومرشداً الشعوب بأسرها إلى قوة الإرادة والإصرار، والصّمود حتى يحقق ما يصبوا إليه، فقال:

إذا الشـــعب يومـــاً أراد الحيـــاة فـــلا بـــدّ أن يســـتجيب القـــدر

ولا بـــدّ للّيـــل أن ينجلـــي ولا بـــدّ للقيـــد أن ينكســـر

فلقد استجاب القدر، وانجلى الليل، وانكسر القيد، ورحل الظّلم والظّالم، وانتصرت إرادة الشعب المكافح في سبيل نيل حريته.